مُقَدِّمَة

العرب من الأمم العريقة في القدم، وهي الأمة التي توحدها لغة واحدة هي اللغة العربية والتاريخ والحضارة الواحدة.

لقد دوَّن لنا التاريخ أخبار البابليين والأشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ممن ترعرع آباؤهم في مهد الجزيرة العربية ثم نزحوا عنها إلى البلدان المجاورة حيث شادوا دولاً عظيمة ما لبث أن أتى الدهر عليها فعفت آثارها واندرست.

أما العرب فكانوا ولا يزالون منتشرين في مركز من أهم المراكز الجغرافية في العالم، تخترقه طرق هي بمثابة حبل الوريد من جسم التجارة العالمية.

ولم يقتصر ما شاده العرب في تاريخ العصور على إنشاء دولة بل تعدّى ذلك إلى الثقافة والعمران. فلقد ورث العرب المدنيات القديمة التي ارتفعت معالمها على شواطئ الرافدين وعلى سواحل البحر المتوسط الشرقية وفي وادي النيل.

واقتبسوا عن الإغريق والرومان القيم من مآثرهم، ثم أضافوا إليه كثيراً مما ابتدعوه، ومن ثم نقلوه إلى أوربا في عصورها المظلمة ونشروه فيها.

فكان من جراء ذلك أن بزغ في أوربا فجر تلك اليقظة العلمية التي لم يزل العالم الغربي، ومنه أمريكا، يتمتع حتى اليوم بحسناتها.

وليس من شعب آخر قام بما قام به العرب في سبيل تقدم البشرية.

وعرب اليوم أبعد عراقه في السلالة السامية وأكثر تمسكاً بتقاليدها من غيرهم من أبنائها. فقد حافظ العرب أكثر من سواهم على مميزات الأرومة السامية من جسدية وذهنية واجتماعية. وعلى الرغم من أن اللغة العربية هي أحدث اللغات السامية من حيث الأدب المدون فقد حافظت أكثر من العبرانية وشقيقاتها من اللغات السامية جميعاً على خصائص اللغة السامية الأم. والإسلام هو غاية الكمال ديناً في مطابقة العقلية السامية. على أن لفظة «سامي» اتخذت في أوربا وأمريكا معنى غير

معناها الصحيح، واقتصر استعمالها للدلالة على اليهودي دون سواه من الشعوب السامية. ولا مسوغ لهذا الخطأ سوى الجهل. فما يحسبه الأوربيون والأمريكيون من «الملامح السامية» كالأنف اليهودي مثلاً - ليس هو بالسامي على الإطلاق، بل هو ما يميز اليهودي من غيره من الساميين، وقد ورثه اليهود عن الحثيين والحوريين لما اختلطوا بهم قديماً عن طريق التزاوج.

وتنحصر الأسباب التي تجعل العربي - وعلى الأخص البدوي - أفضل ممثل للأرومة السامية بيولوجياً ونفسياً واجتماعياً ولغوياً في عزلته الجغرافية في الصحراء، وعدم تبدل وسائل الحياة فيها وبقاء طرق العيش على ما كانت عليه منذ البدء. وما أصالة النسب وتجرد السلالة عن الهجانة والاختلاط إلا نتيجة العزلة والانقطاع في وسط بيئة منزوية وعيش ضيق كما هي الحال في أواسط الجزيرة. ولدينا في جزيرة العرب مثال فريد للبداوة ولطريقة تكيف الإنسان بحسب مقتضيات الإقليم الذي يعيش فيه والتربة التي يدرج عليها. فالتاريخ لم يدون لنا أخبار شعوب هاجرت إلى جزيرة العرب واستوطنت أنجادها وواحاتها واختلطت بسكانها الأصليين كما هاجرت شعوب مختلفة إلى بلاد الهند مثلاً واليونان وإيطاليا وبلاد الإنكليز والولايات المتحدة وأقامت بين ظهراني السكان الأصليين واختلطت بهم. ولم يذكر لنا التاريخ أخبار فتح حملت فيه شعوب ما على الجزيرة العربية وتغلبت على حصونها الرملية ثم استقرت فيها.

فسكان الجزيرة العربية وعلى الأخص البدو بقوا على ما كانوا عليه منذ بدء التاريخ وفي جزيرة العرب نشأ أولاً أجداد الشعوب السامية من بابليين وأشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعرب وأحباش. وفيها قطنوا برهة من الزمن قبل أن نزحوا عنها وصاروا إلى ما صاروا إليه.

والعرب الأصليون هم البدو. وليس البدوي زُطياً أو نَوَرِيّاً يهيم على وجهه لا غاية له ولا قصد. بل البدوي أفضل من كيّف الحياة البشرية طبقاً لأحوال الصحراء الطبيعية. فحيث تيسر المرعى نزل، وحيث ندر قوض خيامه وارتحل. وللبداوة في الصحراء قوانين علمية لا تقل شأناً في وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة الصناعية في حواضر المدن. وهي ضرب من المعيشة ضيق زاهد يجاري بيئة عسيرة مقلة. فمعظم بلاد العرب صحراء قاحلة، والسكنى لا تصلح إلا في بقع من أطرافها تجاور البحار المحيطة

بها، وفي عدد من الواحات المنتشرة في أنحائها. وقد أطلق العرب على بلادهم اسم «الجزيرة» وهي كالجزيرة حقاً إذ تحيط بها البحار من جهات ثلاث وتكتنفها الرمال من الجهة الرابعة.

وبلاد العرب أشد أقاليم العالم حرارة وأقلها مطراً على الرغم من وقوعها بين بحرين هما البحر الأحمر والخليج العربي، وذلك لأن هذين البحرين ضيقان، ولا أثر لهم في تعديل الإقليم والأحوال الجوية الغالبة على الأراضي العديمة المطر في القارتين الإفريقية والآسيوية.

وقد تعود مياه المحيط الهندي إلى الجنوب ببعض الغيث على الجزيرة. إلا أن ريح السموم التي تلفح البلاد كل عام لا تترك وراءها إلا القليل من الرطوبة في داخل الجزيرة. فلا عجب إذاً تغنى شعراء العرب بالنسيم العليل وهباته الشرقية المنعشة، وهي المعروفة عندهم بريح الصبا.

ولا يزال البدوي يقطن بيوت الشعر كما قطنها أجداده من قبل، وينتجع بمواشيه المراعي التي انتجعها أسلافه منذ بدء عهدهم. وهو يتخذ تربية الحيوان من الغنم والإبل والخيل مهنة، ويتعاطى القنص والغزو ولا يحترف سوى ذلك لأن هذه وحدها هي التي تليق به، ولأن الزراعة والتجارة والصناعة على اختلاف أنواعها هي في عرفه دون مقامه شرفاً. والحقيقة الراهنة أن ما يصلح للفلاحة من أرض الجزيرة قليل، وأن الحنطة تكاد لا تزرع فيها. ومن هنا عد البدوي الخبز من كماليات الحياة.

وقد ينبت في الجزيرة بعض الشجر كالنخيل والكرم والبن الذي جلبه اليمنيون من بلاد الحبشة في القرن الرابع عشر للميلاد وغيرها. وينمو في الواحات اللوز وقصب السكر والبطيخ. ولا يزال المر واللبان (البخور) اللذين كان لتجارتهما شأن في تاريخ عرب الجنوب معروفين هنالك.

ومناخ الجزيرة قاس، وهواؤها جاف، وتربتها فيها ملوحة. وليس في طول البلاد وعرضها نهر تصب مياهه في البحر طوال السنة. وليس من نهر صالح للملاحة. فكل ما هنالك أودية مشتبكة تتدفق فيها السيول عندما تطغى. ولهذه الأدوية منفعة أخرى إذ تسير فيها القوافل ويسلك الحجاج شعابها ولا يزال الحج منذ فجر الإسلام حلقة الاتصال بين الجزيرة وسائر البلدان.

وقد زهت في الهلال الخصيب الذي يكتنف الجزيرة من الشمال دول ثم زالت. أما البدوي فلم يتغير وبقي على ما كان منذ البدء، واستمر مع شريكتيه: الناقة والنخلة في الحياة الصحراوية حاكم الصحراء المطلق وواحداً من ثالوثها القديم. ولا يشارك هذا الثالوث في أمر الجزيرة سوى الرمال. وبفضل ما للبدوي من شدة المراس والصبر على الشدائد استطاع أن يثبت حيث يكاد لا يقوى شيء على البقاء. وقد حالت نزعته الفردية بينه وبين صيرورته رجلاً ذا وعي قومي. وأسمى ما وصل إليه في إخلاصه للمصلحة العامة لم يتجاوز ما يتعلق بقبيلته من الأمور. أما النظام واحترام الشرائع وطاعتها والخضوع للسلطة فليست من سجاياه. وكانت بداية الديانة السامية في الواحات لا في المهامِهِ. ولقد قامت على أنصاب وينابيع سبقت ما جاء بعدئذٍ من نوعها مثل الحجر الأسود وبئر زمزم في الإسلام وبيت إيل في العهد القديم من التوراة. أما الشعور الديني في قلب البدوي فسطحي. ولم يفت القرآن التصريح بذلك فقد جاء فيه قوله:

﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً . . .﴾[1]

ولا يزال الأمر كذلك حتى يومنا هذا فليس يتعدى إيمان البدوي بالنبي الاعتراف اللفظي.

وتظهر في عقلية البدوي وبنيته معالم صحرائه القاحلة وحياة الضجر المملة التي تخيم عليها. فجسمه عظم وعضل وعصب، وطعامه مقتصر على التمر، لحم الإبل في حين أن شرابه الرئيس لبن النوق.

وهو يصطنع خمره من عصير التمر، ويطعم إبله نوى التمر مجروشاً. أما غاية آماله أن يحصل على «الأسودين» أي التمر والماء. أما لباس البدوي فبسيط مثل قوته. وهو لا يتعدى قميصاً طويلاً ونطاقاً يشده على حقويه وعباءة يلتف بها وكوفية وعقالاً على رأسه. أما السراويل فيكاد البدوي لا يعرفها، وأما الأحذية فنادرة الوجود قليلة الاستعمال.

وأهم حيوانات الجزيرة الإبل والخيل. وقد يصعب على العقل أن يتصور الصحراء صالحة للعيش من دون الإبل. فهي قوام أهل البداوة، ومطية تنقلهم، ووسيلة معاملاتهم.

١- سورة التوبة: الآية ٩٧.

فمهر المرأة، ودية القتيل، وربح الميسر، وثروة الشيخ كل أولئك تحسب بعدد الإبل. والإبل هي رفيقة البدوي التي لا تفارقه وخِدْنُهُ ومعيله. يشرب لبنها بدلاً من الماء الذي يحرمه نفسه ويوفره لماشيته، ويستوقد بعرها ويتطيب ببولها ويتطبب به فيدهن به وجهه وقاية من الحشرات. وليس الجمل للبدوي سفينة الصحراء فحسب بل هو عطية من الله، وهبة من لدنه.

وذكر (ألواموزل) الرحالة التشيكوسلوفاكي المشهور في كتابه عن قبيلة (الرولة) أنه لا يكاد يوجد فرد من أفرادها لم يشرب مرة ماء من كرش الجمل. فعند الحاجة يؤتى بالجمل وتدفع عصا في حلقه حتى يتقيأ الماء، أو يُنحر ويستخلص الماء منه. وقد يصلح هذا الماء شراباً إذا لم ينقض على تناول الجمل له يوم أو يومان[1].

ويقول علماء الجيولوجيا إن موطن الجمل الأصلي إنما هو البلاد الأمريكية ومنها تسرب في عصور ما قبل التاريخ إلى آسيا الشرقية، فالوسطى، فبلاد العرب. وأول ذكر للجمل في التاريخ يرقى إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد عندما غزا المديانيون فلسطين وأدخلوه إليها على ما ورد في سفر القضاة (٦: ٥).

أما الخيل، وأصلها أيضاً أمريكي، فليست من ضروريات الحياة في الصحراء، ومن هنا لم يكن يملكها منهم غير ذوي اليسار. وعلى الرغم من شهرة الخيل في كتب العرب فإن ظهورها في الجزيرة جاء متأخراً. فلقد جاءتها قبيل الميلاد عن طريق سورية التي كان ملوك الرعاة قد أدخلوا إليها الخيل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وتوفرت للخيول في الجزيرة الأسباب للاحتفاظ بدمها أصيلاً بعيداً عن الاختلاط. وقد اشتهرت الخيول العربية بجمالها وقوتها على تحمل الشدائد ونباهتها وتعلقها بصاحبها وإخلاصها له. فالخيول العربية الأصلية هي مثال لما يحسبه الغربيون أفضل صفات الخيل.

وقد أدخل العرب الخيول الأصيلة إلى الأندلس في القرن الثامن للميلاد، ولا تزال خصائصها ظاهرة في الخيول الأندلسية والمغربية حتى يومنا هذا. حتى إذا كانت الحروب الصليبية امتزج دم الخيول الإنكليزية بدم الخيول العربية الأصلية.

١- د. فيليب حتي - العرب: تاريخ موجز، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٦، ص ١١-١٧.

وأهم ما يعجب العربي من الخيول سرعتها، إذ من دونها لا يصلح غزو. وهي تستخدم أيضاً في السباق والقنص.

وليس الغزو ضرباً من ضروب اللصوصية، وإن شابهها. ولكنه بحكم عوامل حياة البداوة الاقتصادية والاجتماعية وضع من أوضاعها وركن من أركانها. ففي الصحراء، حيث القتال غريزة ملازمة لطبيعة الفرد، يحسب الغزو خليقاً بالرجال وسجية من سجايا الرجولة. ولم يقتصر ذلك على فريق دون آخر بل شمل العرب جميعاً من نصارى وغيرهم.

على أن الضيافة تلطف من مساوئ الغزو. فمهما تمادى البدوي في السلب والنهب والعدوان فإنه يظل كريماً جواداً أميناً على الجوار مضيافاً. ولطالما تغنى شعراء الجاهلية بحماس الضيافة والقرى وحسبوا هذه الظاهرة البدوية أفضل سجايا الإنسان، لا يشاركها في ذلك سوى الحماسة والمروءة. فحاجة البدوي الماسة إلى الماء والمرعى (وهما أهم دواعي الشقاق بين سكان البادية) تستفزه إلى القتال في سبيل الاستيلاء عليهما، فتضطرم نار الوغى بين القبائل. غير أن عجز الإنسان تجاه قوى الطبيعة القاسية التي تستولي على الصحراء يولد في نفسه الشعور بضرورة الضيافة فيحسبها واجباً مقدساً.

ويقوم نظام المجتمع البدوي على العشيرة. والعشيرة هي مجموعة أفراد مخيم واحد قوامه بيوت من الشعر تقطن كل عائلة واحداً منها. وتكون العشائر المتقاربة النسب قبيلة واحدة. ويعتبر أفراد العشيرة أنفسهم من دم واحد، ويخضعون لسلطة الشيخ وحده - وهو أكبر رجال العشيرة سناً. وقرابة الدم هذه أكثرها حقيقي وبعضها اصطناعي قوامه أن يمتص الدخيل على القبيلة شيئاً من دم أحد أفرادها. ولا شك في أن هذه العصبية هي العامل الأكبر في توحيد شعور الأفراد في العشيرة.

ولا يملك الفرد إلا بيت الشعر ومحتوياته. غير أن الماء والمرعى والأرض التي تصلح للفلاحة هي ملك مشاع للقبيلة بأجمعها.

وإذا قتل البدوي آخر من عشيرته لا ينبري للدفاع عنه أحد. فإذا هرب أصبح طريداً خارجاً عن نطاق العشيرة. أما إذا قتل أحداً من عشيرة ثانية تحكم الثأر بين العشيرتين حتى تستوفي الواحدة ثأرها من الأخرى بقتل أحد أفرادها.

فالدم في عرف الصحراء لا يعوض عنه إلا بالدم، ولا جزاء لمهرقه غير القتل. والتبعة الأولى تقع على عاتق الأقربين. وقد يتطاول الثأر حتى يستغرق أربعين سنة. وجدير بالذكر أن الثأر كان سبباً مهماً في الحروب القبلية في الجاهلية المعروفة بأيام العرب وهو يضاف إلى العوامل الاقتصادية في ذلك. وأكبر خسارة يمكن أن تلم بالبدوي هي خسرانه عضويته القبلية وخروجه عن حظيرتها. إذا يصبح شريداً طريداً لا حامي له ولا مجير.

فالعصبية القبلية تتطلب ولاء مطلقاً لأفراد القبيلة كلها. وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبرة بحيث تشمل سائر أفراد العشيرة فيشعر الفرد أن قبيلته حرة مطلقة وإنها وحدة لا تتجزأ. ولا يرى مانعاً يردها عن الإغارة على غيرها من القبائل وسلبها وقتل أفرادها. ويمثل الشيخ قبيلته في جميع شؤونها، ويثبت زعامته بأصالة رأيه في المجلس القبلي، وبكرمه وشجاعته. أما في الشؤون القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة فليس له سلطة مطلقة، بل عليه أن ينظر فيها مع زعماء القبيلة الآخرين في المجلس القبلي. ويبقى الشيخ شيخاً ما دام حائزاً على رضى القبيلة، وإلا فقد مركزه[1].

أما المرأة البدوية سواء كانت إسلامية أم جاهلية، فقد كان لها نصيب وافر من الحرية تحسدها عليه أختها المتحضرة. وإذا كانت قد عاشت أحياناً في بيت تعددت فيه الزوجات وكان الرجل فيه سيداً فإنها حرة في اختيار زوجها وفي فراقه إن أساء إليها. وإن لها فوق ذلك حق التملك الشخصي.

والعرب يفوقون شعوب الأرض باستحسانهم التعبير اللفظي والكتاب وإعجابهم به وبإثارة الكلم في نفوس متكلميها. فالوزن والقافية والموسيقى تولد في النفس شعوراً وتسحرها بما يسمونه «السحر الحلال».

والعرب كسائر الساميين لم يستنبطوا فناً جميلاً خاصاً بهم، بل أطلقوا لطبيعتهم الفنية العنان في مجرى واحد، هو فن الكلام.

وقد عدّ عرب الجاهلية الفصاحة والرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث. والعربية بفضل تركيبها يحسن فيها الإيجاز ويكثر الاقتصاد على ذهن

١- د. فيليب حتي - العرب: تاريخ موجز، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٦، ص ٢٠-٢١-٢٢.

السامع. فاستغل الإسلام هذه الميزة اللغوية كما استغل ميول أهله النفسية فجاء القرآن معجزة في أسلوبه وتركيبه. ويعتقد المسلمون أن «الإعجاز» هو أسطع برهان على صحة دينهم. وإذاً فقد كان فوز الإسلام فوز لغة إلى حد ما، بل قل هو فوز كتاب.

ولم يكن العرب قبل الإسلام أهل حرب وشدة بل أهل تجارة وعمران، فحضارتهم البحرية في الجنوب كانت حلقة الوصل بين الهند وأفريقيا. وفي الشمال ازدهرت لهم مدينتان عظيمتان كانت تقومان على طريق القوافل وهما سلع (البتراء) وتدمر اللتان دمرتا فيما بعد، ولا تزال خرائبهم الفخمة تجتذب السياح من أقطار الأرض. وكانت البتراء التي بلغت أوج عزها وثروتها تحت رعاية الأنباط مدينة منحوتة في الصخر الملون الأصم. أما تدمر وموقعها في الصحراء السورية بين إمبراطوريتي الفرس والرومان المتنافستين فقد خلفت وراءها قصة مدهشة عن أميرتها زنوبيا ذات الجمال والطموح التي اتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق، ووسعت ملكها فضمت مصر وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى. ولما تغلب الإمبراطور اورليان على قوادها في معركة قرب حمص سنة ٢٧٢ م.

غادرت تدمر وأمَّت الصحراء على هجين هاربة. غير أنها أسرت وسيقت أمام عربة قاهرها عند دخوله روما ظافراً، مثقلة بالسلاسل الذهبية حسب عادات ذلك الزمن[1].

وبعد.. فقد كان للعرب في الجاهلية حضارتهم أو أنواع حضارتهم وطبقاتها بحسب مساكنهم من شبه الجزيرة وبحسب صلاتهم بالعالم الذي كان يحيط بهم.

عرف العرب النظم الاقتصادية من رعي وفلاحة وزراعة وتجارة، حيث كانت جزيرة العرب، منذ القدم، طريقاً مهماً للتجارة. فطوراً تنقل غلاتها إلى ممالك أخرى كالشام ومصر، وطوراً تنقل غلات بعض المناطق والممالك الأخرى.

وكان للعرب أديان ومعتقدات ونظم قرابية معقدة، كما كان لهم منتديات وأحلاف تخدم أغراضاً محددة مرسومة، وقاعد دقيقة محكمة ترسم أصول اللياقة وآداب السلوك، وحكم وأمثال جميلة الصياغة، وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم.

١- د. فيليب حتي - العرب: تاريخ موجز، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٦، ص ٢٦.

وكان للعرب أدب رفيع هو مرآة تتجلى فيها الروح العربية في جميع أطوارها من أصالة وامتزج، من بداوة وحضارة، من نهوض وجمود، من قوة وضعف. فهو مرآة تنازع البقاء والتحرر من كل نير اللذين اتصف بهما ابن الصحراء ربيب الحرية والإباء، كما اتصف بهما العربي عموماً في جميع العصور.

وكان للعرب قيم اجتماعية نبيلة كالمروءة والكرم والوفاء والعفة والشجاعة، هذه النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مهدت لتطور العرب اللاحق حيث تمكن العرب المسلمون من فتح معظم بلاد العالم المتمدن في فترة وجيزة في القرن السابع الميلادي. وأخضعوا البلاد العريقة في الحضارة التابعة للإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية.

يدرس هذا الكتاب النواحي الاجتماعية في حضارة العرب قبل الإسلام مثل النظام القبلي والعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية ووضع المرأة والحرب..

وغير ذلك. فإذا كان في هذا الكتاب نقص وبعد عن كمال، فأنا مسؤول عنه، وإن كان فيه شيء من خير وحق وصدق، فالأساتذة والعلماء والمؤرخون الذين كتبوا في الموضوع قبلي فضل السبق وشرف الريادة. إنه جهد لم يبلغ مداه، وما تمام العلم إلاَّ للذي علَّم الإنسان ما لم يعلم.